الأسس الإستراتيجية لبناء المشروع الحضاري عند مالك بن نبي –رحمه الله–

أ. أحمد كاس

جامعة زيان عاشور الجلفة

تعد مسألة التجديد الحضارة من أهم القضايا التي تستدعي رعاية فائقة ، لما تحتله من موقع ودور حاسم في استنهاض الأمة وتوجيه طاقاتها نحو ميادين الفعالية العالمية، والإنجازات التاريخية التي تكون في مستوى متطلبات الواقع و استحقاقاته.

إن المتأمل في أفكار ابن نبي ،يجدها تعالج مسألة واحدة و تدور في فلك واحد ،هو مشكلة الحضارة ،باعتبار أن الحضارة هي الإطار الذي ينظم كل هذه الأجزاء التي نسميها في مكان ما مشكلة سياسية ،وفي مكان آخر مشكلة اقتصادية ،وفي مكان ثالث مشكلة أخلاقية .

والعالم الإسلامي في بحثه عن صياغة بناء حضاري جديد ،عليه أن يبحث أولا في أسباب الغياب الحضاري الذي دام مدة طويلة كان خلالها خارج التاريخ ،فذهب يلتمس الحلول الجزئية ونظر إلى القضية في صورها التجزيئية فاختلفت الأطروحات من طرح السياسي إلى الطرح الاقتصادي، إلى الطرح الأخلاقي ....وهكذا.[1]

فهناك من رأى أن الأزمة سياسية تحتاج حلا سياسيا ، فركز جهده في التغيير والإصلاح السياسي ، ومحاولة تغيير أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية .

وهناك من رأى أنها أزمة عقدية تستلزم إصلاح العقيدة ، و أن لا حل إلا بتخليص العقيدة من الكلام والفلسفة وإعادة تعليم الناس عقائد الإسلام .

فرأي رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تحل بوسائل السياسة ، بينما رأي رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ ....على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض، بل يتحدث عن أعراضه.[2]

فهو ينتقد كلا الفرقين ، بأنهم لم يحددوا مكمن المرض ، فاتجه كل إلى عرض من الأعراض ،في حين أن الأزمة أعمق من هذه الأعراض كلها .

فالمرض كامن في نفس المؤمن ،وفي ثقافته الموروثة ،كما هو كامن في سلوك المسلم وتصرفاته اليومية ، وفي قلبه و عقائده ، فمشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها".[3]

فلقيام أي حضارة لابد من" توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده – في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة – المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه."[4]
وعلى هذا فكل ما يوفره المجتمع لأبنائه من وسائل تثقيفية وضمانات أمنية، وحقوق ضرورية تمثل جميعها أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه.

فالحضارة إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ" ، "هي ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان ، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية واستعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة""،وهي جوهر الوجود للمجتمع، وعكسها هو: الهمجية والعودة إلى البدائية المترحلة" .[5]

إذا كان هذا هو مفهوم الحضارة –بكل جزئياته عند مالك بن نبي – من منظور وظيفي ،فماذا عن مفهومه من منظور تركيبي ، خاصة اذا علمنا انه يعتبر ،بالأساس حركة بناء وليست عملا تكديسيا ؟

مما سبق ذكره ، يمكننا طرح إشكال رئيس هو : ما هي الأسس الإستراتيجية للبناء الحضاري في فكر مالك بن نبي –رحمه الله– ؟

<u>التعريف التركيبي للحضارة :</u>

لما كانت الحضارة – في منظور مالك بن نبي – حركة بناء ،فان في ذلك إقرار صريح بأنها ليست عملا تكديسيا ،لان مشكلة الحضارة لا تحل في نهاية الأمر ، باستيراد منتجات متوفرة لدى مجتمعات أخرى ،هذا لا ينفي الاستفادة الواعية من المجتمعات الأخرى و التي تعد ضرورية لاستقامة التفاعل بين المجتمعات ،ولكنها تتطلب حل ثلاث مشكلات جزئية هـــــــي:

1. مشكلة الإنسان وتحديد الشروط لانسجامه مع التاريخ .
2. مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية .
3. ومشكلة الوقت وبث أهميته في روح المجتمع و نفسية الفرد .

فلكي نبني حضارة "يجب أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[6].

ولهذا فانه حينما نحاول – حسب مالك بن نبي – التخطيط لبناء حضارة ما ، فلا ينبغي أن نفكر في منتجاتها و إنما في أشياء ثلاثة هي : الإنسان ،التراب ، الوقت .

يتم التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة بفكرة دينية، وهو ما رافق تركيب الحضارة (أيُّ حضارة) عبر التاريخ، وهذه الصيغة تأخذ شكل المعادلة التالية:

إنسان + تراب + وقت ←———— فكرة دينية حضارة[7]

1- <u>الإنســان :</u>

إن المتأمل لعنصر الإنسان في مؤلفات مالك بن نبي يقف عند فكرة مفادها أن هذا الأخير هو المنبع الأساسي للمشكل الحضاري ، فالإنسان هو الذي يعتنق الفكرة ويتفاعل معها فيصبح

إنساناً فعّالاً يستثمر التراب والوقت وينطلق من فكرته الدينية نحو ثقافة خاصة به ليبني بذلك جميعه: حضارة.

غير أن مشكلة الإنسان تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها و معطياتها . فالإنسانية "لا تعاني مشكلة واحدة ، بل مشكلات متنوعة تبعا لتنوع مراحل التطور الإنساني . فلا يمكن لنا أن نوازن في الوقت الحاضر بين إنسان أوروبا المستعمر ، وإنسان العالم الإسلامي القابل للاستعمار ن لان كليهما في طور تاريخي خاص به ".[8]

وفي هذا الصدد ، يلفت مالك بن نبي النظر إلى وجود صنفين من الأفراد ، يمكن ملاحظتهما ، في مجتمع خلال فترة الاستعمار ، وليكن المجتمع الجزائري على سبيل المثال :

- فرد المدينة .
- فرد الفطرة (الطبيعة).

فالصنف الأول هو الذي يقطن حيث توجد التجمعات السكانية ، ويكون إما عاطلا لا يعمل شيئا ، وإما أنه يبيع بعض العقاقير و الحاجات ، وإما أنه حاجب في إدارة استعمارية ، والنادر جدا من يعمل كمحام ، أو كصيدلي [9].

أما الصنف الثاني فهو الذي يقطن البادية و يكون مترحلا بلا مواش وفلاحا بلا أرض .

والفرق بينهما هو أن الفرد في المدينة تتمثل فيه الندرة في كل شيء ، فقد تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط ....فهو دائما في منتصف الفكرة ، في منتصف الطريق ، وفي منتصف الطور . لا يعرف كيف يصل إلى هدفه ، إذ هو ليس نقطة انطلاق في التاريخ كرجل الفطرة الطبيعة و لا نقطة النهاية كرجل الحضارة .بل هو نقطة التعليق في التطور ، وفي التاريخ و في الحضارة [10].

و الصنفان من الأفراد يجب القيام بتعديل في أفكارهما و الاتجاه نحوهما بالرعاية و التوعية ليصبحا قادرين على بناء الحضارة .

و هكذا ، فقد أصبح من الضروري أن نضع نصب أعيننا المشكلة برمتها ، و أن نأخذ عنصرها الأساسي : الإنسان ، وان نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ[11].

2- <u>التراب :</u> [12]

العنصر الثاني في معادلته هو التراب، ويتمحور حول قيمته الاجتماعية المستمدة أساسا من قيمة مالكيه . ويرى أن كل المجتمعات فيها موارد محددة، والإنسان الموهوب يستطيع الاستخدام الأقصى لهذه الموارد إن أعمل عقله وطاقاته.

ذلك انه حينما تكون قيمة المجتمع بفعل تقدمه الحضاري مرتفعة ، تكون في المقابل ، للتراب قيمة عالية ، والعكس صحيح .

و بصفة عامة ، إن التراب في المناطق التي ينتشر فيها الإسلام يعتبر عديم القيمة بسب تأخر الأفراد الذين يعيشون عليه . و المثال واضح في بلد كالجزائر ،حيث تتوفر كثير من مدنها على ارض خضراء ،أصبحت مهددة بالزوال بفعل عدم إدراك الإنسان الجزائري لقيمة التراب.

و يلاحظ العكس في بلد كاليابان ،فعلى الرغم من ضعف تربته و عدم خصوبتها فانه استطاع أن يتقدم في مسيرته الحضارية ، بفضل ما قدمه الإنسان الياباني من جهد في سبيل تطويع عنصر التراب او تكييفه وفقا للفوائد و المتطلبات الاجتماعية .

فالسبب يرجع أساسا إلى موقف الإنســـــان نفسه من التراب الذي يعيش عليه و يعمل علــى تثمينـــه و استثماره .

3- الوقت :

أما العنصر الثالث فهو الوقت. ويقول في معرض حديثه عنه: "إن الزمن يمر خلال المدن، يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباءً، وهو يتدفق على السواء في أرض كل شعب، ومجال كل فرد، وهو في مجال ما يصير "ثروة" وفي مجال آخر يتحول عدماً، فهو يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحتها له الأعمال التي أنجزت فيه، ولكنه نهر صامت، حتى أننا ننساه أحياناً، وننسى الحضارات، في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض، ومع ذلك ففي ساعات الخطر في التاريخ تمتزج قيمة الزمن بغريزة حب البقاء، إذا استيقظت، ففي هذه الساعات التي تحدث فيها انتفاضات الشعوب، لا يُقَوَّم الوقت بالمال، كما ينتفي عنه معنى العدم، إنه يصبح جوهر الحياة الذي لا يقدر، ولا تستطيع أي قوة في العالم أن تخلق دقيقة أو أن تستعيدها إذا مضت".[13]

و لا يمكن لأي مجتمع أن يبني هذا المفهوم الوظيفي للوقت ويتعاطاه عمليا ، إلا باعتماد التربية كوسيلة أساسية يدرك من خلالها الأفراد قيمة الوقت ،كعملة فريدة من نوعها ، لا تسترد إذا ضاعت [14].

ولهذه المركبات الثلاثة دور في صناعة الحضارة وهدا يكون إلا بتوفر الفكرة الدينية

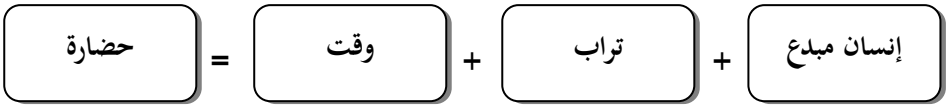

الفكرة المرحفزة (مركب الحضارة):

يضيف مالك بن نبي عنصراً رابعاً في معادلة الحضارة وهو الفكرة المحفزة أو الدين، فالدين يمثل الفكرة المحفزة التي تدمج العناصر الثلاثة (الإنسان + التراب + الوقت)، وتبعث فيها الحياة. وفي أي مجتمع من المجتمعات إذا وجد الإنسان، ووجد التراب (الموارد) ووجد الوقت، فإن الفكرة المبهرة هي التي تجعل الإنسان يشتعل حيوية ليستفيد من الموارد ويستفيد من الوقت. فالدين يلعب دور الباعث للحركة، ويعمل كمركب للعناصر الحضارية.

و بدونه لا يكون أي إنتاج حضاري.[15]

كثيراً ما يدعو مالك بن نبي في كتاباته إلى ضرورة إبداع بدائل فكرية ومناهج علمية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدلاً من استيرادها – كما هي – من الغرب الأوربي. ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشاكلنا الحضارية و الاجتماعية؛ حيث يعتقد أن هناك خصوصيات كثيرة تتميز بها كل حضارة عن غيرها. "فلكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، وخيار العالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية قد جنح بصره إلى ما حوله مما يحيط به نحو الأشياء، بينما الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسل قبلها، سبح خيارها نحو التطلع الغيبي وما وراء الطبيعة.. نحو الأفكار".[16]

و من أهم الخصوصيات التي ميزت نشوء الحضارة الإسلامية أن نشوءها سببه الوحي الرباني؛ مما جعلها حضارة خالدة خلود المبادئ والتعاليم التي تحملها وتدعو إليها، "فجزيرة العرب.. لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباءً لا ينتفع به؛ لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت راكدة خامدة، وبعبارة أصح: مكدسة لا تؤدي دوراً ما في التاريخ؛ حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء –كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن– نشأت بين هذه العناصر الثلاثة (الإنسان + التراب + الوقت) المكدسة حضارة جديدة؛ فكأنها ولدتها كلمة "اقرأ" التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم"[17].

ولهذا "فالحضارة" لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأن "الحضارة" إبداع، وليست تقليداً أو استسلاماً وتبعية كما يظن الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى؛ فبعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمرة جهد متواصل أو هبة تهبها السماء، كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة، ويضع الخير في قلوب الأبرار"[18].

إن هذه الزاوية من النظر تمثل منظومة نافعة لابد أن يزود بها القادة، وأن يفهموها جيداً. إنها معادلة الإنسان المبدع، ومعادلة الموارد، ومعادلة الوقت.

ثم يقدم لنا مالك بن نبي أسس أخرى في غاية الأهمية. مفادها أن كل من يفكر في النهضة عليه أن ينظر إليها من خلال ثلاثة عوالم:

عالم الأفكار.

عالم الأشخاص.

عالم الأشياء.

"ويقصد بعالم الأفكار: مجموعة المعتقدات والمسلمات والتصورات والمبادئ والنماذج التي يعتقدها المجتمع ويبني على أساسها أحكامه وقراراته و التي تحتويها عقول مجتمع ما في لحظة تاريخية ما. ويدخل في هذا العالم أيضاً كل أنماط التفكير والقيم والمشاعر والأحاسيس.

أما عالم الأشخاص: فيقصد به مجموعة العلاقات والنظم والاتصالات والقوانين التي تنظم حياة الأشخاص الذين يكونون هذا المجتمع فيما بينهم.

أما عالم الأشياء: فهو كل ما ينتجه هذا المجتمع من مبانٍ وشوارع وزراعة وصناعة، وغير ذلك من المنتجات والخدمات المحسوسة والملموسة."[19]

وعالم الأشخاص وعالم الأشياء في الأساس هما نموذجان موجودان في عالم الأفكار، تتحقق في عالم العلاقات الاجتماعية في الواقع. فعالم الأفكار هو الذي يختزن الصور والنماذج لعالم العلاقات الإنسانية من اجتماع وإدارة. وعالم الأشياء المادية من عمران ومصانع[20].

إن عالم الأفكار هو العالم الذي يجب أن تعالجه عملية النهضة ابتداءً. وهو يحتوي على أفكار حية وأفكار قاتلة – حسب ما يقول مالك بن نبي. وعندما نستقدم عالم الأفكار الحية وننقي منه عالم الأفكار المميتة، فإن الحياة تدب في المجتمعات.

فإذا زرعت في منظومة معينة قيم السكون والخضوع والذل والاستسلام. أو غذيت أفكار استهلاكية تدعو للترف والنعيم في مجتمع ما، فإنك تستطيع أن تقول أن هذا المجتمع آيل للانهيار. وإذا أزيلت هذه الحشائش الضارة من الأفكار نما المجتمع وتطور.

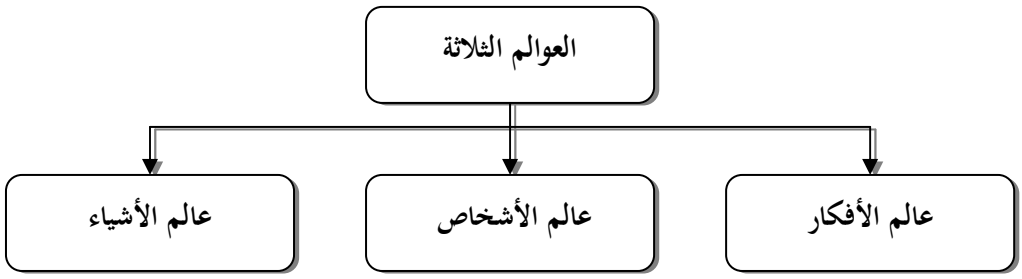

وهذا ما نجده في القران" فقد نزل على أمة تعاني من اختلال جميع العوالم. اختلال في عالم الأفكار، وفي عالم العلاقات، وفي عالم الأشياء.

فسنجد أن عالم أفكارها كان يعاني من اختلالات كبرى. أولها اختلال قيمي مفاهيمي. فلقد كانت مجموعة الأفكار التي طرحتها الحالة الجاهلية – من قبيل قولهم "بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" سورة البقرة: 170، وقولهم "حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا" سورة المائدة: 104 – دليل أساسي على أكبر الآفات في وجه التقدم.[21]

إن الذي يتأمل في خطاب الوحي في مكة؛ يجد أنه جاء أولاً لتصحيح نظرة الإنسان عن الإله والكون والغيبيات، وإلى آخر ذلك من التصورات التي يطلق عليها "العقيدة"، كما اهتم القرآن المكي بمعالجة أنماط ومنهجيات التفكير المختلة، التي تعيق نهضة أي أمة– حتى وإن صحت

نظرتها للإله والكون والغيب (العقيدة). فعقيدة سليمة مع أنماط ومنهجيات تفكير مختلة لا تبني حضارة مطلقاً، وأنماط تفكير سليمة بدون عقيدة صحيحة تبني حضارة مادية خاوية، تحمل في طياتها عوامل الانهيار المتقدم.

أما عالم الأشياء فكان ضعيفاً جداً. فقد كان العرب في الجاهلية رعاة في الصحراء، يعيشون في الخيام، قوام حياتهم الرعي والتجارة والإغارة على القوافل والتجار والقبائل فإذا نظرنا إلى الإسلام ثم إلى نوعية العقلية التي سادت في المنطقة العربية قبل الوحي لوجدنا هذا الاختلال واضحاً[22].

خلاصة:

تميز فكر مالك بن نبي بالعمق والشمولية، وكان منهجه فيها هو البحث عن الأسباب الضاربة في الماضي، وقد استطاع أن يشخِّص حالة العالم الإسلامي اليوم، ومرضه على أنها حالة اللاحضارة، واللاثقافية.

وقد تميز الفكر التغييري عند مالك بن نبي بأنه جذري، فقد اعتبر أن التغيير يبدأ من الفرد (الإنسان) الذي هو عنصر المجتمع، ولذلك نجده يبرز أهمية الفكرة في تفعيل الفرد (الإنسان) حيث يبدأ بتغيير نفسه من داخلها قبل أن يغير الأشياء التي تحيط به، تمشياً مع الآية القرآنية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**﴾ (الرعد: 11)، وهكذا يتغير المجتمع بأكمله إذا ما غير كل إنسان نفسه،وجاءت مقولة مالك بن نبي (غير نفسك تغير التاريخ).

الهوامش

1- مالك بن نبي ،شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ،دمشق ،1996،ص40.

2- المرجع نفسه ،ص41.

3- مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، دار الفكر ،1988،ص70.

4- بدران بن مسعود بن الحسن ،الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري انموذج مالك بن نبي كتاب الامة العدد 73،وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ، قطر ،1999،ص50

5- محمد العبدة ،مقال على شبكة الانترنت ،بعنوان "قراءة في فكر مالك بن نبي"

6- موسى لحرش ، إستراتيجية استئناف البناء الحضاري للعالم الإسلامي ،في فكر مالك بن نبي ،مختبر التربية ، الانحراف و الجريمة في المجتمع ،جامعة باجي مختار ،عنابة ، 2006،ص97.

7- مالك بن نبي ، تاملات ،ترجمة عمر كامل مسقاوي ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ،دمشق،1986،ص179.

8- مالك بن نبي ،مشكلة الثقافة ،ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ،دمشق،1984،ص100.

9- موسى لحرش ، مرجع سابق ،ص104.

10-المرجع نفسه ،ص ص104-105.

11-المرجع نفسه ،ص105.

12-عكاشة شايف ،الصراع الحضاري في العلم الإسلامي (مدخل تحليلي في فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي) ط2،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ص123.

13-محمد سعيد مولاي ، إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي ، مجلة الموافقات ،معهد أصول الدين ،الجزائر ،العدد 3، 1994،ص301.

14-موسى لحرش ، مرجع سابق ،ص133.

15-شروط النهضة، مرجع سابق،ص50.

16-المرجع نفسه ،ص56.

17-عمر كامل مسقاوي ، في تقديمه لكتاب مالك بن نبي "حديث في البناء الجديد"،منشورات المكتبة العصرية ،بيروت ،1960.

18-شروط النهضة، مرجع سابق ،ص48-50.

19-،مشكلة الثقافة ، مرجع سابق ،ص13.

20-المرجع نفسه ،ص16.

21-جاسم سلطان ،مقال إلكتروني بعنوان: مالك بن نبي وثلاثية الحضارة ، سلسلة القادة و مشروع النهضة النهضة.. من الصحوة إلى اليقظة.

22-المرجع نفسه